أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ١ —

بعثني إلى الكتابة عن أبي إسحاق الصابي رغبة حافزة في أن أربط بينه وبين أبي الفرج البغاء أديبين عفّى عليهما الدهر، ثم أراد لأدبهما بعثاً، كما ربطت بين روحيهما أواصر الأدب، فتعارفا متباعدين وتآلفا متقاربين، فقد قدّمنا أن الصلة بينهما كانت في الحياة وثيقة العرا محكمة الحلق، لم تشبها شائبة حفيظة، ولقد جعلني الحديث عن أبي الفرج على ذُكر متصل بأبي إسحاق لا يبرح أفق تفكيري ولا يحيد عنه، ولا يريم عن محيط ذهني ولا يقصو دونه. ولعلّ من أهم عوامل علوق اسمه بذاكرتي، ورسوخ شخصه في مخيلتي، أن حظّه في دنياه كان كحظ صنوه، بل إنه كان أسوأ من أخيه جداً وأنكد دهراً، وأتعس رجاء وأملاً، فكلما تقدم به الأجل وأشرق له الأمل أدركته حرفة الأدب، فتضاعف عليه الألم، لا يغني عنه ما أوتي من ألمعية نادرة، ولا يصرف صروف الدهر دونه ما وهب الله له من مواهب فياضة زاخرة، فَغِيرَ الدهر تنصب عليه انصباباً، ونوبه تتقاذفه تقاذفاً، وأحداث الزمان تتعاوره كهلاً أناخ به المشيب، وخطوبه تتناوبه شيخاً بما لا يقوى عليه الفتى الصليب. وهكذا دواليك: غمرات تترى، ونكبات تتوالى، ولا يجد على تعاقب الليالي إلا ضيما، وتسومه الأيام بكرها خسفاً وظلماً؛ حتى أنشد وأنشد وتمنى، فكانت المنية هي أصدق المنى، فلله هو إذ يقول:

إذا لم يكن للمرء بدّ من الردى ... فأسهله ما جاء والعيش أنكد
وأصعبه ما جاء والعيش رائع ... تطيف به اللذات والعيش مسعد
فإن أك شر العيشتين أعيشها ... فإني إلى خير المماتين أقصد
وسيان يوما شقوة وسعادة ... إذا كان غبا واحداً لهما الغد

وما زال هذا شأنه لا يحول حاله إلا إلى سوء، وذلك ديدنه لا يتغير أمره إلا إلى غير، وهو يندب جده آنا وآنا، ويشكو بؤسه حيناً وحينا، فلا يجد لشكواه سكينة أو أوْنا، ولا يعرف إلى الحين مهيعاً أو سبيلاً؛ حتى صار ملجأ أمراض وأسقام، ومحط أوصاب وآلام. وها هو ذا يشكو زمانته، وآثار الهرم في كيانه وحاجته إلى محفة يتخذها بدل قدميه اللتين ناءتا بحمله، وشاركتا الدهر في استثقال ظله، وقد بعث بقصيدته تلك إلى الشريف الرضي، وقد كان يشفق عليه ويرحمه، ويأسو كلومه ويرأمه، قال منها:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة ... لها أرجل يسعى بها رجلان
وما كنت من فرسانها غير أنها ... وفت لي لما خانت القدمان
نزلتُ إليها عن سراة حِصان ... بحكم مشيبي أو فراش حَصان
فقد حملت مني ابن تسعين سالكا ... سبيلاً عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهدُ الصبيَّ وقبلها ... ذعرت ليوث الغيل بالنزوان

فجاءت مواساة الشريف له سخية وفية، وعطفه براً سابغاً ضافياً، فقد لأم جروحه بقصيدة تفيض بالعطف أشطارها وتفعم بالود أبياتها منها!

لئن رام قبضاً من بنانك حادث ... لقد عاضنا منك انبساط جنان
وإن بُزّ من ذاك الجناح مطاره ... فرب مقال منك ذي طيران
وإن أقعدتك النائبات فطالما ... سرى مو قراً من مجدك اللوان
وإن هدمت منك الخطوب بمرها ... فثم لسان للمناقب بان
ما آثر تبقى مارأى الشمس ناظر ... وما سمعت من سامع أذنان

من هذه الأبيات ندرك تعاسته وبؤسه، ونتبين آلامه وأسقامه، وما زال يغالب الزمان ويجالد الحدثان حتى أراد الله له الدعة التي طالما تمناها، وآناه الطلبة التي كثيراً ما طلبها فعزت عليه. وافاه أجله وقد جاوز التسعين سنة حلب فيها الدهر أشطره فذاق شره مترعاً وقلما طعم خيره، وشرب كئوس البؤس دهاقاً، ولِمامَا ألمّ بالنعيم، ولقد كان في فتوته أسعد حالاً منه في كهولته وعاش في شبيبته أنعم بالاً منه في شيخوخته، وإليك حديثه عن ذلك في خيال صاف ورياحة مطرزة:

عجباً لحظي إذ أراه مصالحي ... عصر الشباب وفي المشيب مغاضبي
أمن الغواني كان؟ حتى ملني ... شيخاً، وكان على صباي مصاحبي
أمع التضعضع ملني متجنبا؟ ... ومع الترعرع كان غير مجانبي
يا ليت صبوته إليّ تأخرت ... حتى تكون ذخيرة لعواقبي

وبعد تلك الالمامة بحاله نتحدث عن نشأته وحياته: يروى ياقوت في معجمه أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون ولد

بحران سنة ثلاث عشرة وثلثمائة هجرية، وأدركته منيته لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر شوال لسنة أربع وثمانين وثلثمائة؛ فسنه على هذه الرواية إحدى وسبعون سنة، وهو يقول في تعزيز روايته تلك: (وذكر أبو منصور الثعالبي في كتابه «يعني كتاب يتيمة الدهر» أنه بلغ من العمر تسعين سنة والذي أوردته من تاريخ حفيده، وهو به أعلم) ويقصد بحفيده أبا الحسين هلالا بن المحسن بن ابراهيم الصابي، ويُعقِّب الأستاذ شارح معجم الأدباء على ياقوت فيقول: (إنما قال الثعالبي إنه خنق التسعين أي قاربها)[1] والحق أن الثعالبي ذكر سن أبي إسحاق في موضعين فقال في صدر الحديث عنه، وهو بصدد التعريف به (وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء) ثم قال في نهاية الفصل الذي كتبه عنه تحت عنوان وفاته (توفي في يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة من شوال سنة أربع وثمانين وثلثمائة، وكانت سنوه إحدى وتسعين سنة قمرية)

وإني إلى تحقيق الثعالبي أميل لوجوه أعدد منها:

أولا: يكاد أبو منصور الثعالبي يعتبر معاصراً لأبي إسحاق الصابي، فقد توفي أبو منصور عقبه بنحو خمس وأربعين سنة، وهو أمد قصير في أعمار التاريخ والمؤرخين

ثانياً: السن التي ذكرها صاحب اليتيمة وردت في قصيدة لأبي إسحاق إذ يقول:

فقد حملت مني ابن تسعين سالكا سبيلا عليها يسلك الثقلان

وقد كان إنشاء هذه القصيدة قبل وفاته بنحو أربعة أشهر

ثالثاً: قد يكون حفيد أبي اسحاق صادراً في حديثه عن غير تروٍّ وتدبر للحقيقة، لأنه حديث يسمع ويُنسى لا كما يصدر حديث من مؤلف يتحرى الصدق ويلتزم جادة الدقة؛ لأنه خبر يخلد ويبقى

رابعاً: سن السبعين لا توهي جلداً ولا توهن عظما، وإن كان صاحبها متزاحمة عليه النائبات مولعة به النكبات إلا في القليل النادر

وسواء أكان موته عن إحدى وتسعين أم عن إحدى وسبعين فقد خلف في الأدب أخلد الأثر، وضرب في النبل والوفاء أصدق المثل، فلقد ولد ومات على دين الصابئة، والصابئون كما يقول الامام الكبير الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ... الخ الآية): (قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان: الأول إن خالق العالم هو الله سبحانه، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم. والثاني: إن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب، ثم إن الكواكب هي المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض، والخالقة لها، فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم، ثم إنها تعبد الله سبحانه)

على هذا الدين ولد أبو إسحاق وعليه مات في عصر الاسلام فيه مزدهر والكلمة العليا له، والمكانة المكينة في العالم لرجاله، ولا فضل لمن لم يوله قلبه، ويهب له نفسه، وإن بقاءه على صابئته — على الرغم مما يحوطه ليدل أعظم الدلالة على أن الإسلام دين سمح، أساسه العفو والأمر بالعرف، والإعراض عن المشركين دون أن يصيبهم أذى، أو ينالهم حيف، أو تحل بهم نقمة مخلوق؛ لأنه دين العقل والحجة والمنطق والموعظة الحسنة، ولو لا تسامح ذلك الدين القويم ما وجد مثل الصابئ كنفاً يلجأ إليه أو وزراً يحميه، فكيف وقد عاش الخلفاء والأمراء والملوك والوزراء؟ وكذلك عاش أمثاله في رغد ورفهية؛ عاشوا موفوري الكرامة مرفوعي الرءوس مجدودي الحياة؛ ولقد بُصِّر أبو إسحاق بالدين الإسلامي ورُغِّب في الاسلام وأُلِّف قلبه، وأجزل له من أجل ذلك، فلم يهد الله قلبه للإيمان؛ لأنا لا نهدي من نحب، ولكن الله يهدي من يشاء؛ لذلك لم يصخ بسمعه إلى دعوة اليقين والداعون إليها هم ساداته ومواليه وأرباب نعمته ومالكو زمام أمره إن شاءوا رفعوه وأعزوه، وإن أرادوا وضعوه وأذلوه. ولقد حدث التاريخ أن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة على أن يسلم، فأباها مفضلاً أن يبقى على دين آبائه الغابرين؛ وإن وفاءه لملته، وإخلاصه لنحلته لمصدر عجب لمن أراد العجب؛ إذ لم يعرف عنه أنه ارتكب أمراً حرم عليه، ولا جاء وزراً نهى عنه شرعه.

ويروى المؤرخون أنه حضر مائدة للوزير المهلبي بن أبي صفرة، وكان أبو إسحاق من خلانه الأدنين وخلصائه المصطفين، فامتنع عن لون من ألوان الطعام محرم لدى الصابئة، فقال له المهلبي: لا تبرد وكل معنا من هذه الباقلاء. فقال: أيها الوزير لا أريد أن أعصي الله في مأكول، فكان موفقاً في إجابته مسدداً في مُجاذبته. ويروى أن عز الدولة بختيار بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول

(١) الجزء الثاني من المعجم الطبعة الأخيرة ص ٢٦

وهو مما يحرم أكله أيضاً فى دينه ، فرفضها متعففاً وهو الفقير إليها فأين منه أولئك الذين لا يتناهون عن منكرات يجترمونها ، ولا يتعففون عن محرمات يجترحونها غير مبالين ما ينتظرهم من حساب شديد وعذاب أليم ؟ وآية نبله أنه مع تعصبه هذا وتشدده وتزمته فى دينه كان جميل العشرة للمسلمين صادق الإخاء كريم الصنيع حسن المعونة ، فكان يصوم رمضان لا تحنثاً بل تجملاً ، ويحفظ القرآن الكريم إجلالا له وعرفاناً بخطره ؛ لأنه رأى فيه مهبط الحكمة ومصدر البلاغة ، ومشرع اللسن والفصاحة ، فظهر أثر ذلك على أسلة يراعه ، وجرى على عذبة لسانه . وإليك ما يقوله أبو منصور الثعالبي فى يتيمته عنه في تلك الناحية من خلقه وأدبه : « كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه ، وبرهان ذلك ما أوردته فى كتاب الاقتباس من فصوله التى أحسن فيها كل الإحسان وحلاها بآى من القرآن)

ومن آيات وفائه ونبله أنه كان صديقاً ودوداً للشريف الرضى حتى اتهم بأنه يدعو له بالخلافة ، ويتمنى أن ينال مطمحه ويدرك مأربه ، وهو لم ينف ذلك عن نفسه ، بل إنه جهر به فى قصيدة بعث بها إلى الشريف ، وهو لابد عالم بوقعها فى نفوس أعدائه وحاسديه ، ولكنه لم يعبأ بما قد يصيبه بسببها ، لأنه أسير وجدانه ، وينطق إذ ينطق عن شعوره وإحساسه ، وما عليه إذ يرضيهما من بأس ، وهذا بعض ما قاله فيها :

أبا حسن لى فى الرجال فراسة ... تعودتُ منها أن تقول فتصدقا
وقد خبَّرتنى عنك أنك ماجد ... سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفَّيتك التعظيم قبل أوانه ... وقلتُ أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها ... إلى أن أرى إطلاقها لى مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذكر بشارتى
وأوجبْ بها حقاً عليك محققاً
وكن لى فى الأولاد والأهل حافظاً
إذا ما اطمأن الجنب فى موضع البقا

ولقد كان مع هذا محبباً إلى الخلفاء والوزراء ، كلهم يطلب يده ويبتغى أن يقصر خدمته عليه دون غيره ، فمنهم من كان يسلك إلى إربته طريق البذل والرفد ، ومنهم من كان يطرق سبيل العقوبة والحقد ، فعاش محسداً إن رضى عنه وزير غضب عليه آخر ، وإن صفا له أمير جفاه خليفة . وممن اصطفاه ولم يجتوه وأحبه ولم يجفه الصاحب بن عباد ، ولعل الأدب هو الذى قرب بين نفسيهما وألف بين روحيهما ، فلم تقع بينهما نبوة ، ولا لحق صداقتهما جفوة ، فكثيراً ما بثه شكواه ، واستمطر غيثه وكان موضع نجواه ، ولقد كان أول أمره يأنف أن يتصل بالصاحب مادحاً أو أن يطلب صلته ما نحا ؛ حتى استوزر الصاحب فنزل عن أنفته وقنع من مطاولته بمصاحبته ، وكان الصاحب يعجب به أشد الإعجاب ، ويراه أحد أفذاذ الأدب ، فقد حدَّث عنه أنه كان يقول: « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابى ولو شئت لذكرت الرابع » وكان يعنى بالرابع نفسه . ويقول الثعالبى « وأما الترجيح بين هذين الصدرين أعنى الصاحب والصابى في الكتابة فقد خاض فيه الخائضون ، وأخب فيه المخبون ، ومن أشف ما سمعته فى ذلك أن الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد» وأحسب أنه يقصد تفضيل الصابى لأن الذى يستطيع أن يكتب ما يراد منه ويؤمر به لا شك مستطيع أن يكتب ما يريده هو ، وعلى هذا فقد برع في الناحيتين وفاق صاحبه فيما قصر فيه ، وإلى أمد قاصد نكمل عنه الحديث متناولين جزءاً آخر من تاريخه الأدبى

عبد العظيم على قناوى

الحاكم بأمر الله
وأسرار الدعوة الفاطميـــة

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

وهو أتم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بأمر الله ، وشخصيته العجيبة ، وحياته المدهشة ، واختفائه المؤسى ؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة ؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير
مطبوع أجود طبع ومزين بالصور التاريخية

ثمنه ٣٠ قرشاً والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج

ويطلب من المؤلف بعنوانه بشارع الهامى نمرة ٢١
والمكتبة التجارية ومكتبة النهضة بشارع المدابغ
وسائر المكاتب الأخرى